القسم الأول

فى نوادر الخلفاء

هارون الرشيد والجارية وأبو نواس

أرق الرشيد ليلة فقام يمشى فى المقاصير فرأى جارية لطيفة الشكل بديعة المنظر فأيقظها فقالت وقد علمت به: يا أمين الله ما هذا الخبر؟ فقال:

هـو ضيـف طـارق فى حيكم ... يرتجى المأوى إلى وقت السحر
فقالت بسرورٍ سيدى أخدمه ... إن رضى بى ويسمعى والبصر

فلما أصبح أحضر أبا نواس وقال له أجز: «يا أمين الله ما هذا الخبر» فأنشد:

طـال ليـلى حين وافانى السهر ... فتفكـرت فأحسنت الفكـر
قمت أمشى فى مكـانى ساعـة ... ثم أخرى فى مقـاصير الحجر
وإذا وجـــهٌ جميـل حسن ... زانه الرحمـــن من بيـن البشر
فلمسـت الرجـل منهـا مـوقظًا ... فرنت نحـوى ومدت لى البصر
وأشـــارت وهى لى قـائلة ... يا أمين الله مـــا هـــذا الخبر
قلت ضيف طـارق فى حيكم ... يرتجى المأوى إلى وقـت السحر
فأجـــابت بسـرور سيـــدى ... أخـدم الضيف بسمعى والبصر

فقال له أكنت معنا: قال لا ولكن ألجانى الشعر إلى ذلك.

* * *

الأصمعى وهارون الرشيد والجارية

قال الأصمعى: دخلت على هارون الرشيد وبين يديه جارية حسناء عليها لمة جعدة وذؤابة مسترسلة وهلال بين عينيها مكتوب عليه بالذهب: «هذا ما عمل فى طراز الله» فقال يا أصمعى صفها: فأنشأت أقول:

كنانية الأطراف سعدية الحشا هلاليـة العينين طائيـة الفمِ
لها حكم لقمانٍ وصورة يوسفٍ ونغمـة داودٍ وعفـة مريمِ

فقال. أحسنت والله يا أصمعى فهل عرفت اسمها؟ قلت لا يا أمير المؤمنين، فقال: اسمها دنيا. فأطرقت ساعة ثم قلت:

إن دنيـا هى التى تملك القلب قاهرهْ
ظلموها شطر اسمها فهى دنيـا وآخره

فسرّ هارون الرشيد من هذا الوصف سروراً عظيمًا

❁ ❁ ❁

ماردة وهارون الرشيد

عتبت ماردة على هارون الرشيد فكانت تظهر له الكراهة وتضمر له المحبة، فقال فيها:

تبدى صـدوداً وتخفى تحتهُ صلة فالنفس راضيـة والطرف غضبـانُ
يا من وضعت له خدى فذلله وليس فوقى سوى الرحمن سلطانُ

❁ ❁ ❁

هارون الرشيد والبنت العربية

روى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد مرَّ فى بعض الأيام وصحبته جعفر البرمكى وإذا هو بعدة بنات يستقين الماء. فعرج عليهن يريد الشرب وإذا إحداهن التفتت إليهن وأنشدت تقول:

قـولى لطيفـك يثنى عن مضجعى وقت المنام
كى أستريح وتنطفى نارٌ تؤجج فى العظام
دنف تقلبـهُ الأكفُّ على بسـاط من سقـام
أمـا أنا فكما علمت فهل لوصـلك من دوام

فأعجب أمير المؤمنين ملاحتها وفصاحتها وقال لها: يا بنت الكرام أهذا من

مقولك أم من منقولك؟ قالت :من مقولى، قال: إذا كان كلامك صحيحًا فأمسكى المعنى وغيرى القافية فأنشدت تقول:

قـولى لطيفـــك ينثنى عن مضجعى وقت الوسن
كى أستريـح وتنطفى نار تؤجج فى البـــدن
دنـفٌ تقلبـــهُ الأكـف على بســاط من شجـن
أمــا أنا فكمـا علمــت فهل لوصـلك مـن ثمن

فقال لها: والآخر مسروق، قالت: بل كلامى، فقال: إن كان كلامك أيضًا فأمسكى المعنى وغيرى القافية فجعلت تقول:

قـولى لطيفـــك ينثنى عن مضجعى وقت الرقاد
كى أستـريـح وتنطفى نار تؤجج فى الفـؤاد
دنـفٌ تقلبـــهُ الأكـف على بســاط من سهـــاد
أمــا أنا فكمـا علمـت فهل لوصلك مـن سـداد

فقال لها: والآخر مسروق، قالت: بل كلامى، فقال لها: إن كان كذلك فأمسكى المعنى وغيرى القافية فقالت:

قـولى لطيفـــك ينثنى عن مضجعى وقت الهجوع
كى أستريـــح وتنطفى نار تؤَجج فى الضلـوع
دنـفٌ تقلبـــهُ الأكـــف على بساط من دمـــوع
أمــا أنا فكمـا علمــت فهل لوصلك من رجـــوع

فقال لها أمير المؤمنين: من أى هذا الحى. قالت: من أوسطه بيتًا وأعلاه عمودًا فعلم أمير المؤمنين أنها بنت كبير الحى. ثم قالت له: وأنت من أى رعاة الخيل. فقال: من أعلاها شجرة وأينعها ثمرة. فقبلت الأرض وقالت: أيدك الله يا أمير المؤمنين، ودعت له ثم انصرفت مع بنات العرب. فقال الخليفة لجعفر: لا بد من زواجها فتوجه جعفر إلى أبيها وقال له إن أمير المؤمنين يريد ابنتك، فقال: حبًا وكرامة تهدى جارية إلى حضرة مولانا أمير المؤمنين، ثم جهزها وحملها إليه فكانت من أعز نسائه.

٭ ٭ ٭

إبراهيم الموصلى والرشيد والجارية

قال إبراهيم الموصلى: قال لى الرشيد: بكر لنصطبح فقلت: أنا والصبح فرسا رهان نستبق إلى حضرتك، نبكرت فإذا أنا به خالٍ وبين يديه جارية كأنها غصن بان حلوة المنطق جميلة الصوت وهى تنشد شعر أبى نواس:

توهمهُ طرفى فأصبح خده ... وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
ومرَّ بفكرى خاطر فجرحتهُ ... ولم أرَ جسمًا قط يجرحهُ الفكر
وصافحهُ كفى فآلم كفهُ ... فمن غمز كفى فى أنامله عقر

فذهبت والله بعقلى حتى كدت أفتضح، فقلت: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه التى قال فيها الشاعر:

بها قلبى الغداة وقلبها لى ... فنحن كذاك فى جسدين روح

ثم قال لها غنى فغنت:

تقول غداة البين إحدى نسائهم ... لى الكبد الحرَّى فسر ولك الصبرُ
وقد خنقتها عبرة فدموعها ... على خدها بيض وفى نحرها صفرُ

وشرب وسقاها، وقال: غنِّ يا إبراهيم، فغنيت عن غير عمد ولا تحفظ أقول:

تشرَّب قلبى حبها ومشى به ... تمشى حميا الكأس فى جسم شارب
ودب هواها فى عظامى فشقها ... كما دبَّ فى الملسوع سم العقارب

ففطن لتعريضى وكانت جهلة منى فأمرنى بالانصراف ولم يدعُ بى شهرًا ولا حضرت مجلسه، فلما كان بعد شهر دسَّ إلى خادمًا معهُ رقعة مكتوب عليها هذه الأبيات:

قد تخوفت أن أموت من الوجد ... ولم يدرِ من هويت بما بى
يا كتابى اقرأ السلام على من ... لا أسمى وقل لهُ يا كتابى
كف صب إليكم كتبتنى ... فارحموا غربتى وردوا جوابى
إن كفًا إليكم كتبتنى ... كف صب فؤادهُ فى عذاب

فأتانى الخادم بالرقعة، فقلت: ما هذه؟ قال رقعة فلانة الجارية التى غنتك بين يدى أمير المؤمنين، فأحسست بالقصة وعجبت من ذاك الأمر.

الرشيد والجارية

دخلت جارية على الرشيد للبيع فتأملها وقال لصاحبها. خذ بيدها وانطلو ولولا ثلف بوجهها وخنس بأنفها لاشتريتها، فأخذها وحينما بلغت الستر، قالت: يا أمير المؤمنين ردني لأنشدك بيتين خطرا لى، فردها فأنشدت:

ما سلم الظبى على حسنه ... كلا ولا البدر الذى يوصفُ
الظبى فيه خنس بين ... والبدر فيه كلف يعرف

فسر الرشيد من فصاحتها واشتراها وقربها إليه.

* * *

جارية أمير المؤمنين والشاب

كان لأمير المؤمنين جارية حسناء تدعى قوت القلوب فسافر يومًا وتركها فى قصره وحيدة فريدة، فوقع نظرها على شاب جميل الهيئة فأحبتهُ كثيرًا وأباحت بما عندها: فصدّ عنها خوفًا من الخليفة فزاد حبها بامتناعِه فنظرت إليه نظرة الهائِم وأنشدت تقول:

قلب المتيم كاد أن يتفتتا ... فإلى متى هذا الصدود إلى متى
يا معرضًا عنى بغير جناية ... فعوائد الغزلان أن تتلفتا
صدٌّ وهجرٌ زائد وصبابة ... ما كل هذا الأمر يحملُه الفتى

فبكى وبكت من لوعة الحب والغرام وأنشدت تقول:

بديع الحسن كم هذا التجنى ... ومن أغراك بالإعراض عنى
حويت من الرشاقة كل معنى ... وحزت من الملاحة كل فنٍّ
وأجريت الغرام لكل قلبٍ ... ووكلت السهاد بكل جفنِ
وأعرف قبلك الأغصان تجنى ... فيا غصن الأراك أراك تجنى
وعهدى بالظبا صيدًا فما لى ... أراك تصيد أرباب المجنِ
وأعجب ما أحدث عنك أنى ... فتنت وأنت لم تعلم بأنى

فلا تسمح بوصلك لى، فإنى أغار عليك منك فكيف منى
ولست بقائل مـا دمـت حيًا بديع الحسن كم هـذا التجنى

* * *

المأمون وجاريته

قال أبو حماد الموكبى: وصفت للمأمون جارية بكل ما توصف امرأة من الكمال والجمال، فبعث فى شرائها، فأتى بها وقت خروجه إلى بلاد الروم، فلما هم ليلبس درعهُ خطرت بباله فأمر فخرجت إليه، فلما نظر إليها أعجب بها وأعجبت به، فقالت: ما هذا، قال: أريد الخروج إلى بلاد الروم، قالت: قتلتنى والله يا سيدى ثم انحدرت الدموع على وجنتيها كنظام اللؤلؤ وأنشأت تقول:

سأدعـو دعـوة المضطر ربًا يثيب على الدعاء ويستجيبُ
لعلَّ الله أن يكفيـك حربًا ويجمعنا كمـا تهوى القلوبُ

فضمها المأمون إلى صدره وأنشأ متمثلاً يقول:

فيا حسنها إذ يغسل الدمعُ كحلها وإذ هى تذرى الدمعَ منها الأناملُ
صبيحـة قالت فى العتـاب قتلتنى وقتلى بمـا قالت هنـاك تحـاولُ

ثم قال لخادمه: يا مسرور احتفظ بها وأكرم محلها وأصلح لها كل ما تحتاج إليه من المقاصير والخدم والجوارى إلى حين رجوعى، ثم خرج، فلم يزل الخادم يتعهدها ويصلح ما أمر به، فاعتلت علة شديدة أشفق عليها منها، ثم ورد نعى المأمون فلما بلغها ذلك تنفست الصعداء وأنشدت وهى تجود بنفسها:

إن الزمـان سقانا من مرارته بعـد الحلاوة أنفاسًا وأروانا
أبدى لنـا تارةً منـهُ فأضحكنا ثم انثنى تارة أخـرى فأبكـانا
أنا إلى الله فيمـا لا يزال لنا من القضاء ومن تلوين دنيانا
دنيا نراهـا ترينا من تصرفهـا مـا لا يدوم مصـافاة وأحزانا
ونحـن فيهـا كأنا لا نزايلهـا للعيش أحيـاؤنا يبكون موتانا

* * *

المأمون وجاريته

غضب المأمون يومًا على جاريته عريب المغنية، وكان كلفًا بها فأعرض عنها وأعرضت عنهُ، ثم أسلمه الغرام وأقلقه الشوق حتى أرسل إليها يطلب مراجعتها، فلما اجتمعا لم تلتفت إليه وكلمها فلم ترد عليه فأنشأ يقول:

تكلم ليس يوجعك الكلامُ ... ولا يذرى محاسنك السلامُ
أنا المأمون والملك الهمام ... ولكنى بحبك مستهامُ
يحق عليك ألا تقتلينى ... فيبقى الناس ليس لهم إمامُ

* * *

المأمون ويحيى بن أكثم

أصبح المأمون وعندهُ عبد الله بن طاهر ويحيى بن أكثم، فغمز المأمون الساقى على إسكار يحيى، فسقاه حتى سكر، وبين يديهم هالة من الورد دفنوه فيها ونشروا عليه زهورها فلما رآه المأمون ضحك كثيرًا وأنشد بيتين أمر إحدى جواريه أن تغنيهما عند رأس يحيى فغنت:

ناديتهُ وهو ميت لا حراك ... مكفنٌ فى ثيابٍ من رياحين
وقلت قم قال رجلى لا تطاوعنى ... فقلت خذ قال كفى لا يؤاتينى

وجعلت تردد الصوت، فأفاق يحيى وهو تحت الورد فأنشأ يقول مجيبًا:

يا سيدى وأمير الناس كلهم ... قد جار فى حكمه من كان يسقينى
إنى غفلت عن الساقى فصيرنى ... كما ترانى سليب العقل والدين
لا أستطيع نهوضًا وقد وهى بدنى ... ولا أجيب المنادى حين يدعونى
فاختر لنفسك قاضٍ إننى رجلٌ ... الراح تقتلنى والعود يحيينى

* * *

المأمون والجارية

وعد المأمون جارية أن يأتى لزيارتها وأخلفها الوعد فكتبت إليه:

أرقت عينى ونامت عين من هنتُ عليهِ
إن نفسى فاعذرنها أصبحت فى راحتيهِ
رحم الله رحيمًا دل عينى عليهِ

فلما قرأ رقعتها ضحك ولم يلبث أن زارها.

* * *

المأمون وجاريته والرسول

عتب المأمون على جارية من جواريه وكان كلفًا بها فأعرض عنها وأعرضت عنه. ثم أسلمه الهوى وأقلقهُ الشوق حتى أرسل يطلب مراجعتها، فأبطأ عليه الرسول فلما رجع أنشأ يقول:

بعثتك مرتادًا ففزت بنظرةٍ وأغفلتنى حتى أسأت بك الظنا
وناجيتَ من أهوى وكنت مبعدًا فيا ليت شعرى عن دنوك ما أغنى
ونزهت طرفًا فى محاسن وجهها ومتعت باستظراف نغمتها أذنا
أرى أثرًا منها بعينيك لم يكن لقد سرقت عيناك من وجهها حسنا
فيا ليتنى كنتُ الرسول وكنتنى وكنت الذى يقصى وكنت أنا المدنى

* * *

المأمون وأبو عيسى وقرة العين

بينما كان المأمون عارمًا على الركوب ومبارحة القصر اعترضه على بن هشام قائلاً: يا أمير المؤمنين عندى جارية اشتريتها بعشرة آلاف دينار وقد أخذت بمجامع قلبى وأريد أن أعرضها على أمير المؤمنين، فإن أعجبته ورضيها فهى له وإلا فيسمع

منها شيئًا من الغناء، فقال الخليفة: علىَّ بها، فخرجت جارية كأنها قضيب بان لها عينان فتانتان وحاجبان كأنهما قوسان وعلى رأسها تاج من الذهب تحتهُ عصابة مكتوب عليها:

جنيـة ولهـا جن تعلمهـا رمى القلوب بقوسٍ ما لهُ وترُ

فلما رآها المأمون تعجب من حسنها وجمالها، وكان إلى جانبه فتًى يدعى أبا موسى فلما شاهد تلك الجارية وما هى عليه من الحسن والجمال وقع حبها فى قلبه وبدت عليه علائم الاصفرار، فقال له المأمون: ما لك يا أبا عيسى قد تغير حالك؟ فقال: يا أمير المؤمنين بسبب علة تعترينى فى بعض الأوقات، فقال له الخليفة: أتعرف هذه الجارية قبل الآن؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين وهل يخفى القمر، ثم قال لها المأمون: ما اسمك يا جارية؟ قالت: اسمى قرة العين يا أمير المؤمنين، قال لها: غنى لنا يا قرة العين. فأنشدت تقول:

إذا كنت ترضيهِ ويرضيك صاحبٌ جهارًا فكن فى الغيب أحفظ للودِّ
والغِ أحـاديث الوشـاة فقلمـا يحـاول واشٍ غير هجـران ذى ودِّ
وقـد زعمـوا أن المحـبَّ إذا دنا يمل وإن البعـد يشفى من الوجـدِ
بكلٍّ تداوينا فلم يشفَ مـا بنـا على أن قرب الدار خيرٌ مـن البعدِ
على أن قـرب الدار ليـس بنـافعٍ إذا كـان من تهـواه ليس بذى ود

فلما فرغت من شعرها قال أبو عيسى يا أمير المؤمنين إذا افتضحنا استرحنا أتأذن لى فى جوابها. فقال له الخليفة: نعم، قل لها ما شئت، فكفكف دمع العين وأنشد هذين البيتين:

سكت ولم أقل: إنى محـبٌّ وأخفيـت المحبـة عن ضميرى
فإن ظهر الهوى فى العين منى فدانيـة مـن القمـر المنيرِ

فأخذت العود قرة العين وأطربت بالنغمات وأنشدت تقول:

لو كان مـا تدعيـه حقًّا لمـا تعلقـت بالأمـانى
ولا تصبـرت عـن فتـاةٍ بديعـة الحسن والمعـانى
لكن دعـواك ليس منهـا شيءٌ سوى القول باللسان

فلما فرغت من شعرها جعل أبو عيسى يبكى وينتحب ويتوجع ويضطرب ثم رفع رأسه وأنشد يقول:

تحت ثيابى جسـدٌ ناحلُ وفى فؤادى شغل شاغلُ
ولى فـــؤاد داؤه دائـمٌ ومقلـة مدمعهـا هـاطـلُ
وكلمـــا سالمنى عاقـل قام لحينى فى الهوى عـاذلُ
يا رب لا أقوى على كل ذا مـــوت وإلا فـرجٌ عاجـلُ

فلما فرغ أبو عيسى من شعره وثب على بن هشام فقبله وقال له يا سيدى قد استجاب الله دعاك وسمع نجواك وأجابك إلى أخذها إن لم يكن لأمير المؤمنين غرض فيها. فقال المأمون ولو كان لنا غرض فيها لآثرنا أبا عيسى على أنفسنا وساعدناه على قصده، ثم إنه دفعها إليه فعاش معها على ما يرام.

❁ ❁ ❁

المأمون والجارية نسيم

كان المأمون مشغوفًا بحب جارية تدعى نسيم، وكانت ذات عقل وأدب وفضل وكمال لا يفارقها ولا يهوى سواها، ففى ذات يوم نظر إلى جارية حسناء لطيفة اللون رشيقة القد فمال إليها لأنها كانت أحسن منها وأعرض عن جاريته نسيم، فاغتمت لذلك ولم تجد حيلة لاستعطافه، وكانت لها جارية رومية ذات عقل وأدب ولطف قد كتمت أمرها عن المأمون، فاتفق أن المأمون اعتل جسمه قليلاً ثم شفى فجعل الناس يدخلون عليه بأصناف التحف والهدايا فأهدت إليه نسيم الجارية المذكورة هدية ومعها جام بللور وغطته بمنديل فاخر مكتوب عليه بالذهب هذه الأبيات:

اشرب بهذا الجام يا سيدى مستمتعًا بهـــذه الجـارية
واجعل لمن أهداكهـا زورة تحظى بها فى الليلة الثانيـة

فأعجب المأمون ما رأى من الجام والجارية وبعث لها بكتاب يسترضيها فيه ثم عاد معها إلى سابق الود.

❁ ❁ ❁

محمد بن هارون وجلساؤه الثلاثة

تنفس محمد بن هارون الأمين يومًا فى مجلسه أيام الحصار فالتفت إلى جليس له يدعى محمد بن سلام، وقال له: ويحك يا محمد أترانى؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ذكرت قول الشاعر:

ذكر الهوى فتنفس المشتاق وبدا عليه الذلُّ والإطراقُ
يا من يصبرنى فأصبر بعده والصبر ليس يطيقه العشاقُ

فقال: لا والله ما أصبتها، ثم التفت إلى جليس آخر، فقال: ويحك ألا ترانى؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ذكرت قول الأحنف:

تذكرت بالريحان منك شمائلاً وبالراح عذبًا من مقبلك العذب

فقال: لا والله ما أصبتها، ثم التفت إلى كوثر الخادم، فقال: ويحك أترانى، فقال: نعم يا أمير المؤمنين ذكرت قول ابن نفيلة الغسانى:

إن كان دهر بنى ساسان فرقهم فإنما الدهر أطوار دهارير
وربما أصبحوا يومًا بمنزلة تهاب صولتها الأسد المهاصير

فقال: أصبتها والله ورفع منزلته.

* * *

نصيب وعبد العزيز بن مروان

دخل نصيب على عبد العزيز بن مروان، فقال له: هل عشقت يا نصيب؟ قال: نعم جعلنى الله فداءك ومن العشق أفلتتنى إليك البادية، قال: ومن عشقت؟ قال: جارية لبنى مدلج فأحدق بها الواشون فكنت لا أقدر على كلامها إلا بعين أو إشارة فأجلس على الطريق حتى تمر بى فأراها ففى ذلك أقول:

جلست لها كيما تمر لعلنى أخالسها التسليم إن لم تسلمِ
فلما رأتنى والوشاة تحدرت مدامعها خوفًا ولم تتكلمِ
مساكين أهل العشق ما كنت أشترى حياة جميع العاشقين بدرهمِ

العاشق وعبد الملك بن مروان

قال أبو ريحانة: كان عبد الملك يجلس فى كل أسبوع يومين جلوسًا عامًا فبينما هو جالس فى مستشرف له وقد قدمت إليه أوراقًا فيها مطالب بعض المحابيس رأى فى ورقة منها مكتوبًا: (إن رأى أمير المؤمنين أن يدع جاريته فلانة تغنى ثلاثة أصوات ثم ينفذ فىَّ ما شاء من حكمه) فاستشاط من ذلك غضبًا وقال لى: علىَّ بصاحب هذه الرقعة فأحضرته بين يديه وهو غلام جميل الطلعة حسن المحيا، فقال له عبد الملك: أهذه رقعتك يا غلام، قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: وما الذى غرك منى والله لأصنعن بك ما يرتدع به نظراؤك من ذوى الخسارة ثم قال علىَّ بالجارية. فجيء بها من الخباء بوجه مشرق كالبدر وفى يدها عودٌ لطيف الأوتار، فطرح لها الكرسى فجلست، فقال عبد الملك: مرها يا غلام، فقال لها غنى يا جارية بشعر قيس بن ذريح:

لقد كنت حسب النفس لو دام ودنا ... ولكنما الدنيا متاعُ غرورِ
وكنا جميعًا قبل أن يظهر الهوى ... بانهم حالى غبطة وسرورِ
فما برح الواشون حتى بدت لنا ... بطون الهوى مقلوبةً لظهورِ

فغنت فخرج الغلام يمزق ثيابه من شدة الوله، فقال له عبد الملك مرها تغنيك الصوت الثانى فقال غنى بشعر جميلٍ:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بوادى القرى إنى إذًا لسعيدُ
إذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى ... من الحب قالت: ثابت ويزيدُ
وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به ... مع الناس قالت: ذاك منك بعيدُ
فلا أنا مردود بما جئت طالبًا ... ولا حبها فيما يبيد يبيدُ
يموت الهوى منى إذا ما لقيتها ... ويحيى إذا فارقتها فيعودُ

فغنتهُ الجارية، فوقع الغلام مغشيًا عليه ساعة ثم أفاق، فقال له عبد الملك: مرها فلتغنك الصوت الثالث، فقال: يا جارية غنى بشعر قيس بن الملوح المجنون:

وفى الجيرة الغادين من بطن وجرة ... غزال غضيض المقلتين ربيبُ
فلا تحسبى أن الغريب الذى نأى ... ولكن من تنأين عنهُ غريبُ

فغنته الجارية فطرح الغلام نفسهُ من مستشرف. فلم يبلغ الأرض حتى تقطع فقال عبد الملك: دعيه لقد عجل على نفسه ولقد كنت حسبته على غير ما أرى ثم أمر فأخرجت الجارية من قصره، وسأل عن الغلام، فقيل: غريب لا يعرف إلا أنه منذ ثلاثة أيام كان ينادى فى الأسواق ويده على رأسه:

غدًا يكثر الباكون منا ومنكم وتزداد دارى من دياركمُ بعدا

❁ ❁ ❁

المتوكل وعلى بن الجهم ومظلومة

قال على بن الجهم: دخلت يومًا على المتوكل، فقال: يا على، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: دخلت إلى الساعة جارية وقد كتبت على خدها بالمسك اسمى، فوالله ما رأيت سوادًا فى بياض أحسن منهُ فى ذلك الخد، فقل فيه شعرًا، فقلت: أمظلومة هنا، قال: نعم وكانت مظلومة خلف الستارة فدعت بدواة وبادرتنى بأبيات فقالت:

وكاتبة بالمسك فى الخد جعفراً بنفسى يخط المسك من حيث أثرا
لئن أودعت سطراً من المسك خدها لقد أودعت قلبى من الحب أسطرا
فيا من لمملوكٍ تملك مالكًا مطيعًا له فيما أسر وأظهرا
ويا من مناها فى السرائر جعفر سقى الله من صوب الغمامة جعفرا

فأفحمت ولم أنطق وتغلبت على خواطرى فما قدرت على حرف أقوله.

❁ ❁ ❁

جارية المهدى والتفاحة

أهدت جارية من جوارى المهدى تفاحة إلى المهدى مطيبة وكتبت فيها:

هدية منى إلى المهدى تفاحة تقطف من خدى
محمرة مصفرة طيبت كأنها سن جنة الخلد

فأجابها المهدى:

تفاحـة من عنـد تفاحـة جاءت فماذا صنعت بالفؤاد
والله مـا أدرى أأبصرتها يقظان أم أبصرتها فى الرقاد

* * *

المعتز بالله

كان المعتز بالله رجلاً فاضلاً وعاشقًا عفيفًا، فقال يصف داء الحب فى شعر يقول:

لقد عرفتُ عـلاج الطب من وجعى وما عرفتُ علاج الحب والجزع
جزعـت للصبـر والحمى صبرتُ لها إنى لا أعجب من صبرى ومن جزعى
ومـــا أمـل حبيبى ليتنى أبـدًا مـع الحبيـب ويا ليـت الحبيب معى

وقال أيضًا:

الله يعلـــم يـا حبيبى أننـى منـذ غبت عنـك مولهٌ مكـروبُ
يدنـو السـرور إذا دنا بك منـزلٌ ويغيب صفو العيشِ حيثُ تغيبُ

* * *

المكتفى بالله

قال المكتفى بالله يصف سطوة الحب وعزه وولاءَه:

من لى بأن يعرف ما ألقى فيعـرف الصبـوة والعشقا
ما زال لى عبـد وحبى له صيـرنى عبـــدًا له رقا
يعتق مـن رقى ولكننى مـن حبـه لا أملك العتقا

* * *

المستظهر بالله

قال المستظهر بالله يصف وداع الحبيب حبيبهُ:

أذاب حرُّ الهوى فى القلب ما جمدا! يومًا مـددت على رسم الـوداع يدا

فكيف أسلك نهج الصبر حيث أرى طرائق الهجرِ فى مهوى الهوى قددا

* * *

المعتضد بن عباد وجاريته العبادية

كان للمعتضد جارية أديبة ظريفة كاتبة فصيحة العبارة لطيفة الإشارة عارفة بأساليب الغناء، وكان قد أهداها إليه مجاهد العامرى، فمال إليها ميلاً شديداً وشغف بها شغفًا زائداً حتى إنها ألهتهُ عن بعض أموره وكانت من توقد قريحتها وحضور بديهتها ترتجل الشعر والأمثال، فبينما كانت يومًا نائمة فى بيتها وكان المعتضد سهران دخل عليها وهى نائمة فقال:

تنام ومدنفهـا يسهر وتصبر عنه ولا يصبر

فانتبهت من نومها وأجابته بديهة:

لئن دام هــذا وهــذا له سيهلك وجداً ولا يشعرُ

* * *

المعتمد بن عباد والرميكية

ركب المعتمد فى النهر ومعه ابن عمار وزيره وقد زردت الريح النهر فقال ابن عباد لوزيره: أجز: «صنعَ الريح من الماء زرد»، فأطال الوزير الفكرة، فقالت امرأة من الموجودات على ضفة النهر: «أى درعٍ لقتال لو جمد». فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار ونظر إليه فإذا هى غاية فى الحسن والجمال، فأعجبته فسألها أذات بعل أنت قالت لا قال: وما اسمك؟ قالت: الرميكية فتزوجها وولدت له أولاداً.

حماد الراوية والخليفة يزيد

قال حماد الراوية: كنت محبًا للوليد بن عبد الملك، فلما ولى أخوه يزيد الخلافة هربت إلى الكوفة، فبينما أنا فى المسجد الأعظم إذ أتانى رسول محمد بن يوسف الثقفى، وقال: أجب الأمير، فدخلت عليه، فقال: ورد كتاب أمير المؤمنين علىً يحملك إليه، وبالباب نجيبان فركب أحدهما ودفع إلىَّ كيسًا فيه ألف دينار، وقال: هذه نفقة لمنزلك، فدخلت دمشق فى اليوم الثامن واستأذن لى الرسول فدخلت عليه فإذا هو جالس فى دار مبلطة بالرخام الأحمر وفيها سرادق وسط قبة حمراء وعلى رأسه جاريتان بثياب حمراء بيد إحداهما إبريق وبيد الأخرى نبيذ، فلما قابلته قال لى: ادن يا حماد أتدرى فيم بعثت إليك؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: فى بيت شعر ذهب عنى أوله، قلت: من أى بحر أو قافية؟ قال: لا أدرى إلا أنه بيت فيه (إبريق)، فقلت فى نفسى: الآن وقت إجهاد الفكرة، ففكرت ساعة ثم قلت: نعم يا أمير المؤمنين لعلهُ قول التبع اليمانى:

بكر العاذلون فى وضح الصبح ... يقولـون لى: أمـا تستفيـقُ
ويلومون فيك يا بن عبيـد الله ... والقلـب عنكـم مرهـــوقُ
لست أدرى إذا أكثر العـذل فيها ... أعـــدو يلومنى أو صـــديقُ
ودعوا بالصبوح يومًا فجـاءت ... قينـــة فى يمينهـــا إبـريـقُ

فصاح يزيد وقال: هو والله الشعر بعينه وشرب، وقال: يا جارية اسقيه فسقتنى كأسًا أذهب ثلث عقلى، فقال: سل حاجتك قبل أن يذهب الثلث الآخر فقلت: إحدى هاتين الجاريتين، فقال: هما لك بما لهما وما عليهما ومائة ألف تحسن بها سيرك، ثم ناولتنى الجارية كأسًا فشربتها وانصرفت على أحسن حال

* * *

محمد بن عبد الله بن طاهر والجارية والمتوكل

بينما كان محمد بن عبد الله بن طاهر فى الحج رأى فى الطواف جارية فى نهاية الحسن فوقع حبها فى قلبه، فعمل على أخذها له وعاد إلى حيث كان، فلما قدم

مدينة دار السلام شغف بها شغفًا شديداً وأخفى أمرها وما يجدهُ خوفًا من أمير المؤمنين المتوكل. وكان من شدة وجده بها يحتبس عندها أيامًا لا يظهر للناس فى خلالها ففطن إليه سويد بن أبى العالية صاحب البريد، وكان بينه وبين محمد منافرة لم يجد لها كيداً إلا أن كتب إلى المتوكل وهو نازل على أربعة فراسخ من بغداد كتابًا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد يا أمير المؤمنين فإن محمد بن عبد الله بن طاهر اشترى جارية حسناء لا يفارقها أبداً وقد اشتغل بها عن النظر فى أمور الناس وعن التوقيع فى دعاوى المظلومين، ولا يأمن أمير المؤمنين من خراب يصيب بغداد مع كثرة ما فيها من الغوغاء فتكون العائدة سببًا لتعب سره».

ثم ختم الكتاب وسلمه إلى بعض المماليك فأوصله إليه، فلما قرأ المتوكل ذاك الكتاب نظر إلى نرجس الخادم وقال له: امض الساعة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر وادخل إلى منزله بغتةً من غير إذن وانظر إلى ما يصنع ثم خذ منه جاريته فلانة وائت بها من غير تأخير، فحضر نرجس من ساعتِه ودخل على محمد بن طاهر دون أن يطلب الإذن، فلم يشعر محمد إلا وهو واقف أمامهُ، فتغير وجهه وامتقع لونه وفاضت عيناه وارتعدت فرائصه لعلمه أن نرجسًا ما دخل عليه من غير إذن إلا وقد أضمر له السوء، فقال له: يا نرجس ما الذى أتى بك؟ قال: أمير المؤمنين أمرنى أن آخذ جاريتك هذه، قال: يا نرجس هذا اليوم قد حضر شره وغاب خيره وقد ترى ما نحن فيه وأنا لا أخالف ما أمر به أمير المؤمنين، ثم أمر للخادم بكرسى فجلس عليه بعد أن امتنع ساعة، وقال: إن مثلى لا يجلس مع مثلك، ثم إن محمداً نظر إلى الجارية وبكى بكاءً شديداً، وقال لها: غنى لأتزود منك فأخذت العود وغنت بصوت حزين:

لله من لعذبين رماهما ... بشماتة العذال والحسّادِ
أما الرحيل فحين جدَّ تحملت ... مهج النفوس به من الأكبادِ
من لم يبت والبين يصدع شملهُ ... لم يدرِ كيف تفتت الأكبادِ

ثم إنهما أعلنا بالبكاء والنحيب والشهيق فرحمهما الخادم ورق لهما حين عاين ما حل بهما، فقال: أيها الأمير إن رأيت أن أمضى وأدعكما على ما أنتما عليه وأتعلل عنكما لأمير المؤمنين فعلت، فقال: يا نرجس من خلفه مثل أبى سويد كيف يمكنه التعلل ولكن أرفق بنا، فقالت الجارية: والله يا سيدى لا ملكنى غيرك

أبدًا ولئن دفعتنى إليه لأقتلن نفسى، فقال لها محمد: لو كان غير أمير المؤمنين لكان فى ذلك أوسع حيلة، ولقد وددت أن يأخذ أمير المؤمنين جميع ما أملك ويعزلنى عن عملى ويبيعك لى ولكن هذا قضاء الله وقدره، ثم التفت إلى نرجس، وقال: لقد شاهدت منى ومن هذه الجارية ما شهد قلبك علينا بالمحبة والمودة والألفة وليس يخفى عليك أن عمل المعروف يقى مصارع السوء ومثلك من يصنع المعروف مع مثلى فخذها وامض بها إلى أمير المؤمنين وقل ما شئت مما يليق بمروءتك، ثم التفت إليها وقبلها وبكى وبكت وبكى نرجس ثم أخذها وخرج وهى تبكى وتخمش وجهها ثم سار حتى دخل بها على أمير المؤمنين، فلما رآه، قال: ما وراءك؟ قال: ورائى يا أمير المؤمنين كل بلية، ثم إنه جلس بين يديه وقص عليه حالهما ولم يخف شيئًا، فقال المتوكل: كل هذا الوجد يجدهُ محمد من هذه الجارية! فقال: يا أمير المؤمنين والذى خفى أكثر مما ظهر وما أظنه يعيش بعدها، فرق له قلب المتوكل، وقال: يا نرجس ارجع بها إليه الساعة من وقتك هذا وأدركه قبل أن تزهق روحه وقد أمرت له بمائة ألف درهم ولها مع ذلك مثله وجعلت أمر أبى سويد إليه يصنع به ما يشاء، ثم كتب له توقيعًا بذلك دفعه إلى نرجس، فرجع الخادم بالجارية والتوقيع ولم يتمهل حتى دخل عليه فوجده عريانًا يتقلب على الثرى من شدة الكرب والوجد وقد أحدقت به الجوارى يروحنه بالمراوح، فقال: أبشر يا محمد إن أمير المؤمنين قد ردَّ جاريتك عليك من غير أن يوقع نظرهُ عليها وقد حكمك فى أبى سويد، ثم ناوله التوقيع بذلك ودخلت الجارية عليه، فوثب إليها وعانقها وقبلها ساعة ثم خرج فجلس على باب داره وبعث إلى أبى سويد، فلما حضر دفع إليه التوقيع، فلما قرأه قال: أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك وإن تهدم منى ركنًا أنت شيدته وتصنع معى جميلاً فمثلى من هفا ومثلك من عفا، ثم قام وقبل الأرض بين يديه، فقال له محمد: لا أبدل نعمة الله كفراً ثم أمر له بخمسين ألف درهم، فقالت الجارية: وأنا أيضًا أهب له مثل هذه الهبة مما وهبه لى أمير المؤمنين، ثم ذهب أبو سويد وبقيا بعد ذلك فى أطيب عيش وأحسن حال.

❁ ❁ ❁

عمر بن عبد العزيز وامرأته

كتبت امرأة عمر بن عبد العزيز إلى عمر لما اشتغل عنها بالعبادة:

ألا يا أيها الملك الذى قد ... سبى عقلى وهام به فؤادى
أراك وسعت كل الناس عدلاً ... وجرت علىَّ من بين العبادِ
وأعطيت الرعية كل فضلٍ ... وما أعطيتنى غير السهادِ

فلما قرأ الأبيات صرف وجهه إليها.

* * *

عبد الله بن الأمين

كان عبد الله بن الأمين جميلاً فاضلاً فرأى يومًا فتاة لطيفة فأنشد فيها:

جار على وجنته مدمعه ... وزال عمن قد رجا مطمعهُ
فى حب ظبى لك من وجهه ... إذا تجلى قمرٌ يطلعهُ
قد أُعطى الحسن مليكًا فيما ... أصبح عنه أحد يمنعهُ
فى خده من صدغه عقرب ... تلسع من شاء ولا تلسعهُ

* * *

هارون بن المعتصم

قال هارون بن المعتصم فى فتاة حسناء كان قد رآها ووقع فى حبها وهواها:

وشادن يفضح بدر الدجى ... والبدر فى ليلته يزهرُ
يجحد أنى مستهامٌ به ... فهو لقولى أبدًا ينكرُ
وقد كسانى سقمى حلةً ... تظهر من وجدى الذى أفكرُ
يكفيك منى شاهدٌ أننى ... إليك من دون الورى أنظرُ

* * *

أبو يحيى القاضى وأحد الخلفاء

كان أبو يحيى القاضى فى زمان أحد الخلفاء، وكان لا يشرب الخمر بل ينهى دائمًا عن شربه حتى إنه نهى الملك نفسهُ، فاغتاظ الملك لهذا الأمر وأضمر ذلك فى نفسه، وكان عنده جارية حسناء تدعى: «نصيبين» لطيفة القد فتانة الملامح، فدعا بها يومًا وقال: يا نصيبين اذهبى غدًا إلى البستان واصعدى إلى المقصورة العالية فإننى من الآن أهيئ هناك من المأكول وغيره ما يصلح للمقام، فادخلى المخدع الذى يقاربها واختبئى فيه حين قدومى مع أبى يحيى القاضى، وبعد الفراغ من الطعام أذهب أنا إلى البستان وأدع لك أبا يحيى وحيدًا فى القصر، فاخرجى أنت وأصلحى العود وقدمى بين يديه المدام وزيدى فى الغناء له حتى يذهب عن هداه فقالت سمعًا وطاعةً أيها الملك، وفى الغد دخلت البستان وفعلت ما أمرها به، ولم يمضِ إلا القليل حتى جاء الملك مع أبى يحيى القاضى فجلسا يتسامران إلى أن حضر الطعام فأكلا، ثم قام الملك، وقال: يا أبا يحيى ابقَ هنا إلى أن أعود إليك، ثم نزل إلى البستان وأشار إلى نصيبين فخرجت للحال وسلمت على أبى يحيى فرد عليها السلام فأخذت العود وأصلحت أوتاره وغنت:

نظرى إلى وجـه الحبيب نعيم ... وفراق مـن أهـوى على عظيمُ
وأنا الذى ما كنت أرحم عاشقًا ... حتى عشقت وهـا أنا المرحومُ
يا غارس الريحـان حول خيامنا ... لا تغرس الريحـان لست تقيمُ
ما كل من ذاق الهوى عرف الهوى ... أوَكل من شرب المـدام نديمُ
مـا لى لسان أن أقـول ظلمتنى ... والله يعلـم أننى مظلـومُ

فطرب أبو يحيى من غنائها ولاحت عليه علائم الانبساط فلما آنست منهُ ذلك رمت العود من يدها وأخذت الجام وسكبت المدام وقدمت له كأسًا منها، فامتنع أبو يحيى عن أخذها، فصارت تلاعبهُ تارة وتمازحهُ أخرى إلى أن شرب منها، وما زالت تهيجه بمغناها حتى ترنح من الطرب فصار يطلب منها كأسًا بعد أخرى حتى أخذ منه السكر ومالت به هزة الطرب فاستلقى على ضمة من زهر الرياحين وهو غائب عن وجوده، وإذا بالملك أقبل فرآه على ذى الحال فناداه قائلاً:

ما لى أنادى أبا يحيى فينبينى سكران مطروح ما بين الرياحين

فأجابه على الفور:

مـا أنت ربى على ذنبى تحاسبنى ولا نبيًا لطرق الحق يهـدينا
مـا قال ربك ويل للألى سكروا بل قال ربك ويل للمصلينـا
أنعم علىَّ بما أوعـدتنى كرمًا واجعل نصيبى من الدنيا نصيبينا

فعجب الملك من ذكائه ودفع إليه تلك الجارية.

* * *

يزيد بن عبد الملك وجاريته حبابة

كان ليزيد بن عبد الملك بن مروان الأموى جارية مدنية صبيحة الوجه مليحة النادرة لطيفة المحاضرة خفيفة الروح غردة الصوت شجية الغناء عالمة بصنعة العود وكان يزيد مغرمًا بها شديد الهيام بحبها فخلع العذار وتقطع إليها الليل والنهار، وكانت لديه الأميرة المطلقة تعزل من تشاء وتولى من تشاء، فاشتهر أمره وشاع ذكرها وذكره إلى نزل معها ذات يوم بإحدى قرى الشام ونظر إلى غلامه قائلاً: ويحك لا تمكن أحدًا من الوقوف ببابى ولا تدع إنسانًا يخرق حجابى، ثم خلا بحبابة وما برح معها فى لهو وطرب إلى أن تواسط النهار. فدعا بطبق رمان تناثرت على سطحه الحبوب تناثر اللؤلؤ على الأعناق وقدمهُ إليها، فشرقت حبابة بحبة منهُ ذهبت بروحها إلى عالم العدم، فصاح يزيد صيحة الألم وطارت نفسهُ بأثرها شعاعًا وطفق يعض أنامله جزعًا والتياعًا، وما زال يقبلها وينوح عليها إلى أن أدركها الفساد، فأودعوها الثرى حتم أنفه وهو يدمى بثناياه باطن كفه ويردد الأنين والحسرات حتى شرب كأس المنون فدفنوهُ حذاءها ولسان حاله يقول:

أموت على أثر الحبيبة ظاعنًا ليجتمع الروحان فى عالم الخلد

ومما قاله فيها إثر فراق:

أبلغ حبابة أسقى ربعهـا المطر مـا للفؤاد سوى ذكراكم وطرُ
إن سار صحبى لم أملك تذكرهم أو عرَّسـوا فهمـوم النفس والسهرُ

ومما قالت له قبل موتها:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلمداً
فما العيش إلا ما يلذ ويشتهى وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

* * *

علية ابنة المهدى العباسية

كانت ظريفة الوجه عفيفة النفس ذات صيانة وأدب بارع وكانت تهوى غلامًا يدعى طلاً فنهاها عنهُ أخوها الرشيد فلم تنتهِ، فحلف أنها لا تذكره ثم تسمع عليها يومًا فوجدها وهى تقرأ القرآن فى آخر سورة البقرة حتى بلغت قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة:٢٦٥]، فما نهى عنه أمير المؤمنين فدخل الرشيد وقبل رأسها وقال لها: قد وهبتك طلاً ولا منعتك بعدها عما تريدين.

ولما خرج الرشيد إلى الرى أخذها معه فلما وصلت إلى المرج وبعدت عن الحبيب أنشدت تقول:

كتمت اسم الحبيب عن العباد ورددت الصبابة فى فؤادى
فوا شوقى إلى أيام خلى لعلى باسم من أهوى أنادى

فلما بلغت الحمى وآنست قرب الحبيب خف عنها بعض الوجد الذى كان عندها ففى ذات يوم بينما كانت فى بيتها وأخوها إلى جانبها جاءتها عريب وجاءها يعقوب وكان أحذق الناس بالمزمار فلح عليها بالغناء، فغنت شعراً لها:

تحبب فإن الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجب القربِ
تبصر فإن حُدثت أن أخا الهوى نجا سالمًا فانج النجاة من الحرب
إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتْبِ
وأطيب أيام الفتى يومهُ الذى يروّع بالهجران فيهِ وبالعتب

ثم أنشدت:

لم ينسينك سرور لا ولا حزن وكيف لا كيف ينسى وجهك الحسن
ولا خلا منك لا قلبى ولا جسدى كلى بكلك مشغولٌ ومرتهنُ
وحيدة الحسن ما لى عنك من كلفٍ نفسى بحبك إلا الهم والحزنُ
نورٌ تولد من شمس ومن قمرٍ حتى تكامل فيه الروح والبدنُ

فطرب الجميع من رقتها ورخامة صوتها وعذوبة ألفاظها.

المهدى والرجل

دخل أحدهم إلى مقصورة إحدى جوارى المهدى، فلما كان خارجًا اعترضهُ الحاجب وشكاه إلى أمير المؤمنين فأمر بإحضاره وسأله عن دخوله وكيف كان وما شأنه؟ فقال: إن هذه الجارية كانت لوالدتى وكان بينى وبينها ألفة فلما بيعت لأمير المؤمنين صرت إلى الباب متعرضًا لها. فأذنته فى الدخول فدخلت على أحد أمرين: إما أن أراها فأشتفى من ألم البعاد أو أقتل فأستريح من هذه الحياة، فأمر المهدى بإحضار سياط ونصبِه بينها، ثم ضربه عشرين سوطًا ورفع عنه الضرب وقال: ما أصنع بتعذيبك ولست بتاركك حيًا ولا تاركها يا غلام سيف ونطع فلما أتى بذلك وأجلس الغلام فى النطع، قال: يا أمير المؤمنين قبل أن يحل بى الهلاك وهو دون حقى اسمع منى ما أقول، قال: هات، فأنشأ يقول:

ولقد ذكرت والسياط تنوشنى عند الإمام وساعدى مغلولُ

ولقد ذكرتك والذى أنا عبده والسيف بين ذوائبى مسلولُ

فأطرق المهدى وتغرغرت عيناه بالدموع، ثم قال يا غلام خل السيف جانبًا وحل قيوده وأخرجه مع من يحبها من هذا المكان.

* * *

جارية يزيد بن عبد الملك والشاب

كانت عند يزيد بن عبد الملك جارية حسناء نحيلة القد كاملة العقل والأدب، فعظم حبهُ لها وأخذت بمجامع قلبه فقال لها يومًا: ويحك أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيفه أو أسدى إليه معروفًا، قالت: يا أمير المؤمنين ليس لى قرابة، ولكن بالمدينة ثلاثة أشخاص كانوا أصدقاء لمولاى أحب أن ينالهم مثل ما نالنى من الخير، فكتب إلى عامله بالمدينة فى إحضارهم إليه وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم فى الدخول عليه،

فأذن لهم وأكرمهم غاية الإكرام وسألهم عن حوائجهم، فأما اثنان منها فذكرا حوائجهما فقضاها وأما الثالث فسأله عن حاجته، فقال: يا أمير المؤمنين ما لى حاجة، قال: ويحك أولست أقدر على حوائجك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين ولكن حاجتى ما أظنك تقضيها، فقال: ويحك فاسألنى فإنك لا تسألنى حاجة أقدر عليها إلا قضيتها، قال: فلى الأمان يا أمير المؤمنين، قال: نعم، قال: إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر جاريتك التى أكرمتنا بسببها أن تغنى ثلاثة أصوات بما أقترح عليها من الشعر، فتغير وجه يزيد ونادى بالجارية فحضرت فقال: حاجتك، فقال: يا أمير المؤمنين مرها تغنى بهذا الشعر:

لا أستطيع سلوًا عن مودتها ... أو يصنع الحب بى فوق الذى صنعا

أدعو إلى هجرها قلبى فيسعدنى ... حتى إذا قلت هذا صادق نزعا

فأمرها فغنت، ثم قال للفتى سل حاجتك، فقال: مرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

تخيرت من نعمان عود أراكةٍ ... لهندٍ ولكن من يبلغهُ هندا

ألا عرجا بى بارك الله فيكما ... وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا

فأمرها فغنتهُ، ثم قال للفتى: سل حاجتك، فقال: تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

منى الوصال ومنكم الهجرُ ... حتى يفرق بيننا الدهرُ

والله لا أسلوكم أبدًا ... ما لاح بدرٌ أو بدا قمرُ

فأمرها فغنت، فلم تتم الأبيات حتى خر الفتى مغشيًا عليه، فقال يزيد للجارية: قومى انظرى ما حاله، فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت، فقال يزيد: ابكيه، فقالت: لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حى، فقال لها: ابكيه فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك، فبكت الجارية وبكى أمير المؤمنين، ثم أمر بالفتى فدفن وأما الجارية فلم تلبث أن ماتت على أثره.

* * *

إبراهيم بن المهدى وجارية بنت عصمة

اختفى إبراهيم بن المهدى زمن المأمون عند بنت عصمة بنت أبى جعفر حين هربه من المأمون لشدة طلبه له، وكانت تكرمه غاية الإكرام وتلاطفه بأشهى الطرائق وتتفقده فى أوقاته ووكلت به جارية يقال لها ملك وكانت قد أدبتها وأنفقت عليها الأموال وكانت جميلة الصوت راوية الأشعار بارعة الجمال حسنة القد عاقلة فكانت تتولى خدمة إبراهيم وتقوم على رأسه تتفقد أموره فأحبها كثيراً وكتم ذلك عن ربة البيت فلما اشتد وجده وغلب حبها على فؤاده أخذ عوداً وغنى فيها شعراً له وهى واقفة أمام عينيه:

يا غزالاً لى إليـــه ... شـافع مـن مقلتيـه
والذى أجللـت خـ ... ـديه فقبلـت يديه
بابى وجهـك مـا أكـ ... ـثر حسـادى عليـه
أنا ضيف وجزاء الضـ ... ـيف إحسـان إليـه

فسمعت الجارية الشعر وفطنت لمعناه لرقة قلبها وظرف شمائلها، وكانت مولاتها تسألها عن حالها وحاله فى كل يوم فأخبرتها ذلك اليوم بما فى قلبه منها وما سمعت من شعره غناء فقالت لها مولاتها اذهبى فقد وهبتك له فعادت إليه فلما رآها أعاد الصوت فأكبت عليه الجارية وقبلت رأسه فقال لها كفى فقالت: قد وهبتنى مولاتى لك فسرّ كثيراً لنيل بغيته.

* * *